المكتبة العربية

التعريف بكتاب الحيوان للجاحظ

لحضرة الأستاذ محمود محمد مصطفى

خريج دار العلوم

وأستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية بالازهر

للجاحظ وهو العالم الجليل والأديب البارع الذى له فى كل فن مجال وفى كل مقام مصال ، كتب تربى على المائتين وله من بينها كتاب هو أدلها على فضله وأجمعها لمتنوع علمه . ذلك هو كتاب الحيوان وهو أكبر كتبه حجما يقع فى سبعة أجزاء ويشتمل على نحو ألف صفحة من القطع الكبير وهو مطبوع بمصر قام بالانفاق عليه الحاج محمد الساسى المغربى التاجر بمصر

ومما جاء فى أوله مما يشبه التعريف به والدلالة على مافيه قول الجاحظ

« وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه رغبة العرب والعجم لأنه وإن كان عربياً أعرابياً ، وإسلامياً جماعيا ، فقد أخذ من طرف السياسة وجمع معرفة السماع ، وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحس وإحساس الغريزة . ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك . ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه الجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغُفل كما يشتهيه الأديب ، ويشتهيه الغبى كما يشتهيه الفطن »

بدأ الجاحظ كتابه بمقدمة استغرقت طلع خمسين صفحة ذكر فيها

بعضاً من مؤلفاته وأنحى باللوم على العائبين لكتبه . ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جامد ونام . وجعل النامي النبات والحيوان . ثم ذكر أقسام البيان ثم استطرد إلى مدح الكتب فأطال فى ذلك وأعاد وأبدى ، ثم تناول موضوع الخط ومقدار الحاجة إليه ، ثم خرج إلى الشعر قبل الإسلام ، ثم أعاد القول فى شأن الكتب والترغيب فى اصطناعها . ثم ذكر ما يعترى الانسان عند الخصاء ثم سرد طرق خصاء البهائم ثم ذكر الخصى من بنى آدم وأنه أطول عمراً من الفحل ، ثم تناول الموضوع من الناحية الشرعية ثم رجع إلى القول فى محاسن الخصى ومساويه .

ولا تظن أنه حين تناول البحث العلمى فى كتابه بذكر الخصاء كف عن الاستطراد ! ! فهذا مالا يتصور فى الجاحظ . فهو غير معفيك من مثل يشرحه أو حكمة ينسبها إلى قائلها أو كلمة يرويها عن صاحبها أو آية يستدل بها على مايقول . وقد يستطرد من ذكر آية إلى أقوال المفسرين فى القرآن فيقول

« كان أبو إسحق يقول لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا فى قوله تعالى « وأن المساجد لله » ليست المساجد التى نصلى فيها بل هى الجباه والأيدى والأرجل وكل مايقع على الأرض عند سجودنا : وقالوا فى قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » إنه ليس يعنى الجمال والنوق وإنما عنى السحاب . وقالوا فى قوله تعالى « ويل للمطففين » الويل واد فى جهنم ثم تعدوا يصفون ذلك الوادى . ومعنى الويل فى كلام العرب معروف . وقالوا أخطأ من قرأ قوله تعالى (عينا فيها تسمى سلسبيلا) فوصل بعض هذه

بعض هذه الكلمة يبغض وإنما هى سل سبيلا إليها يا محمد . فأن كان كما قالوا فأين معنى تسمى ؟ ! !

وقد قصر الجزأين الأول والثانى على الكلام عن الكلب والديك وعقد موازنات ومفاضلات بينهما فجعل للكلب صاحباً يحتج له ويذكر محاسنه فيرد عليه صاحب الديك بمثل ما فعل وهكذا دواليك . ولعل ذلك الأسلوب كان متبعاً عندهم تختبر به قوة الحجة وشدة العارضة ، وبين ثبت كتبه تجد كتباً متناقضة فكتاب فى « ذم النبيذ » وآخر فى مدحه وكتاب فى « ذم الكتاب » وغيره فى مدحهم وسنورد عليك بعض هذا الجدال .

قال صاحب الديك وذكر الكلب فقال : من لؤمه أنه إذا أسمنته أكلك وإن أجعته أنكرك ، ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه ، وإلفه لمن أجاعه لأنه أجهل من أن يأنس بما يؤنس به وأشره ، وأنهم وأحرص ، وألج من أن يذهب بمطمعه مايذهب بمطامع السباع . ومن جهله أيضاً أنا لم نجده يحرس المحسنين إليه بنباحه وأربابه الذين ربوه وواسوه إلا كحراسته لمن عرفه ساعة واحدة بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه بل ليس ذلك منه حراسة وإنما هو فيه من فضل البذاءة أو الفحش وشدة التحرش والتسرع وقد قال الشاعر :

إذا تخازرت وما بى من خزر ثم كسرت العين من غير عور
أبذا إذا بوذيت من كلب ذكر أسود فراع تعوى فى السحر

وإنما ذلك شكل من الجبن الذى يعترى نساء السفلة من الصخب ، والكلب جبان وفيه جرأة ولؤم ، ولو كان شجاعاً وفيه بعض النهيب كان أمثل . . وهو مع ذلك أسمج الخلق صوتاً وأحمق الخلق يقظة ونوماً ، ينام النهار

كله على نفس الجادة وعلى مدق الحوافر ، وفى كل سوق وملتقى طريق ، وعلى سيل الحمولة ، وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب والنصب والتعب والغيظ والغضب ، وبالمجئ والذهاب ، فيركبه النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وطئته دابة فأسوأ الخلق جزعا ، وألأمه لؤما ، وأكثره نباحا وعواء . فإن سلم ولم تطأه دابة ولا إنسان فليست تتم له السلامة لأنه فى كل حال متوقع للبلية ، ومتوقع البلية فى بلية . وقد كانت الطرق الخالية له مُعَرَّضة ، وأصول الحيطان له مباحة

وبعد فإن كل خلق فارق أخلاق الناس فأنه مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سكناً ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى للحاجات مسرحا

قال صاحب الكتاب : لو شئنا أن نقول إن سهره خصلة ملوكية لقلنا ، ولو كان خلاف ذلك ألذ لكانت الملوك به أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية وعبتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلم ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتاب من رض عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائما فى طريق خال ، وليس بحضرته رجال يُهابون ومشيخة يَرحمون ويَزجرون السفهاء وأن ذلك لا يعذبه فى مجامع الأسواق لقل خلافه عليك ، ولما رقد فى الأسواق ، وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحراس وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها .

ثم يبدأ الجزء الثالث بذكر الحمام فيقول : باب ذكر الحمام وما أوعها الله عز وجل من ضروب المعرفة ومن الخصال المحمودة لنعرف بذلك حكمة الصانع وإتقانه وصنعة المدبر . وإن كنا قد أملناك بالجد . ثم يستمر فى الاعتذار عن خلط جده بالهزل فيقول « على أنى قد عزمت

والله الموفق أنى أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تمل الألحان المطربة ، والأصوات الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة . وإن كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا إلا أن تستفيدوا خيرا . وقال أبو الدرداء « إنى لأجم نفسى ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها » ثم يروى جملة فكاهات تضحك (كما يقول) كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب فيقول : حدثنى المدائنى قال تحول أبو عبد الله الكوفى اللحيانى الى الحريبة فادعى أنه فقيه وظن أن ذلك يجوز لمكان لحيته وسمته ، وألقى على بابه البوارى [1] وجلس إليه الجيران فأتاه رجل فقال ياأبا عبد الله : رجل أدخل إصبعه فى أنفه فخرج عليها شىء من الدم فأى شىء يصنع ؟ قال يحتجم . قال الرجل قعدت طبيبا أم فقيها ؟ ! !

وقال حدثنى أبو الجهجاه قال ادعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل ان ينظر فى شىء من نسب كندة فقلت له يوما وهو عندى ممن أنت يافلان ؟ قال من كندة قلت من أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع الكلام عافاك الله .

وقال أخبرنى محمد بن سليمان قال قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة نحن أشد حبا لرسول الله منكم يأهل المدينة ، قال المدنى فما بلغ من حبك لرسول الله قال وددت أنى وقيته يوم احد ولم يكن وقع عليه شىء مما حل به ، قال المدنى أفعندك غير هذا قال وما يكون غير هذا

(١) الحصر والمفرد بارية

قال : وددت أنا أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي وأنى كافر . وجعل يروى من مثل هذا ونحوه ثمانى صفحات ، ثم استطرد بقوله وسنذكر من نوادر الشعر جملة فإن نشطت لحفظها فإنها من أشعار المذاكرة . واستمر يروى من الشعر وطالت الرواية حتى لقد عقد فى هذا الاستطراد أبوابا الباب صدق الفطن وجودة الفرسة وباب المديح بالجمال وغيره ، ثم إنه بعد نحو خمسين ورقة عاد إلى موضوع الحمام. وأظنك أيها القارىء الكريم قد لمست جانب الاستطراد فى تأليف الجاحظ . وليس معنى هذا أن الاستطراد قد اعتدى على الحقائق العلمية فإنه بعد هذا الاستطراد كتب فى الحمام وحده أكثر من خمسين صفحة فوصف أنواعه، وذكر طبائعه ، فلم يترك فيه قولا لقائل وفى هذا الكتاب يروى الجاحظ عن أرسطو ويسميه صاحب المنطق، ولأرسطو كتاب فى الحيوان نقله ابن البطريق وقد اطلع عليه الجاحظ وعرضه على فكره الثاقب وبصيرته النقادة . فلم يكن يخضع لقول أرسطو ويخدع بكونه فيلسوف اليونان الأشهر، بل قد ناقشه فى عدة مواضع من الكتب زيف بها آراءه فقد روى رأيه فى أن إناث العصافير أطول أعمارا من ذكورها التى لا تعيش إلا سنة واحدة . فقال « والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلبته ، لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء، والأمور المقربة غير الأمور الموجبة . فينبغى أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل » ثم رد على من ادعى أن البلبل لا يستقر أبدا، فقال « وزعموا أن البلبل لا يستقر أبدا وهذا غلط لأن البلبل إنما يقلق لأنه محصور فى قفص، والذين عاينوا البلابل والعصافير فى غير أوكارها وغير محصورة فى الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلبل فى الحركة »

وانظر إلى كلامه عن الحيات يهاجم المزاعم الكاذبة والخرافات

الهائلة فى بعض أنواع الحيات قال « والأعراب تقول فى الأمثلة قولا عجيبا ، تزعم أن الحية يقال لها الأصلة لا تمر بشىء إلا احترق مع تهاويل كثيرة وأحاديث شنيعة وتزعم الفرس أن الأجدهانى أعظم من البعير ، وأنها لها سبعة رءوس وربما لقيت أناسا فتبتلع من جهة كل فم ورأس إنساناً ، وهو من أحاديث الباعة والعجائز .

وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهر حية لها رأسان فسألت أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تاكل فقال : أما السعى فلا سعى ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما تتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فانها تتعشى بفم وتتغذى بفم ، وأما العض فانها تعض برأسيها معاً . فاذا به أكذب البرية . والكتاب وإن كان علمياً كثير القول فانه مع ذلك جميل العبارة بارع الوصف فيه قطع كأنها قطع الرياض كسين زهرا ، منها وصفه للكتاب الذى جعله فى المقدمة الطويلة التى سبقت أبوابه ولولا الاطالة وشهرة هذه القطعة لنقلنا منها بعضاً . ولكنى سأنقل قطعة لعلها خفيت فى غضون الكتاب فلم تشتهر شهرة تلك ، قال فى باب « القول فى الحيات » « اللهم جنبنا التكلف وأعذنا من الخطل واحمنا من العجب بما يكون منا والثقة بما عندنا ، واجعلنا من المحسنين . حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى وأخوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر ، أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت ، فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة فاذا رأى عوداً قائما وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية

على أنها عود ، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جعلا أو بعض مالا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها ، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وإن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه فى الصيف والقيظ فى انتصاف النهار والهاجرة . وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود وأنه سيقوم له مقام الجذل للحرباء إلى أن يسكن الحر ووهج الرمل . وفى هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذى عاد كالجمر وصلح أن يكون ملة وموضعا للخبزة ، ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة ، فهذه أعجوبة من أعاجب مافى الحيات

والكتاب كله على هذا النمط نقل عن صاحب المنطق واستنباط من كلام العرب ، واعتماد على رواياتهم ، وملاحظة دقيقة ، واختبار ذاتى واستطراد إلى مثل ماعرفت ، فكل هذا جعل الكتاب موسوعة علمية أدبية عديمة النظير .